وبطانته وقادة جنده، فلما بَغَتَهُ الموت ووليها من بعده سليمانُ بن عبد الملك، كانت أشياء تحيكُ في صدره من بطانة الخليفة الراحل ... وكانت أشياء تحيكُ في صدورهم كذلك، ولكن مسلمة بن عبد الملك — كما قال أبوه — كان مِجَنَّ هذه الدولة، فردَّ سيوفًا — كانت مُشْرَعة — إلى أغمادها، وبَصَقَ على الفتنة فانطفأت.

وتهيَّأ مسلمة للحج، ففرَّقَ أصحابه على الثغور، وعقد الألوية لأمراء الصائفة، ووزَّع الأعطياتِ في الجند، ثم سار في موكب فخم ضخم على ظهر البادية إلى الحجاز، يصحبه النعمان بن عبيد الله ...

ونزلوا ذات يوم للقيلولة في بعض مراحل الطريق، ثم نهضوا يستأنفون الرحلة، وكان بالنعمان في ذلك اليوم وجعٌ يَثْقُلُ به، فلا يكاد ينهض، ولكنه لم يَطِب نفسًا بالتخلُّف، فتحامل على نفسه حتى رَكِب، وأسلم زمام ناقته إلى الحادي،[٦] ثم أخذَته إغفاءةٌ،[٧] فمال برأسه على قَتَب الراحلة، وسبحت به الأحلام في بحر بعيد الشاطيء، فانكشفت له صورٌ من الحياة لم يرها من قبل، ولم تخطر له في وهمٍ، ولا في أمنية ...

ثم نَشِطَ من إغفاءته هذه معافًى خفيفَ الحركة، ولكن رأسَه مما ازدحم فيه من الأوهام والصور لا يكاد يثبت بين كتفيه ...

واستمر الركب في سُراه على ظهر البادية، والحُداةُ يوقِّعون أغانيهم في هدوء الليل، فتُرَجِّعُ الصخور صداها عذبًا صافي الرنين كأن موسيقى تعزف وراء تلك التلال التي تكتنفُ طريق الوادي ...

وامتلأت نفسُ النعمان شِعرًا بليغًا، ولكن شفتيه لم تلفظا بيتًا، ولم يتحرك لسانه بقافية، واستحالت العواطف الشاعرة دموعًا في أجفانه، وتأجَّجَت نارًا في رأسه، وكان نسيم الليل باردًا بليلًا، فحبس في عينيه تلك الدموع، ولكنه لم يُطفِئ الوجْدَ الملتهِب في صدره، والنارَ المشتعلة في رأسه، وبَسَطَ صدره ورفع أنفه يعبُّ الهواء عبًّا، ولكنه لم يَرْوَ من ظمأ أو يبترِدْ من غُلَّة؛ فاستحثَّ راحلته حتى تقدَّمَت فحاذَت راحلة أميرِ الركب مسلمة بن عبد الملك، فهمَّ أن يتحدث إليه حديثًا، ثم أمسك ...

---

[٦] الحادي: قائد الركب.

[٧] نعسة.